لواء د./ أحمد يوسف محمد عبد النبى
مستشار بقيادة أكاديمية ناصر العسكرية للدراسات العليا

مفهوم توازن القوى فى العلاقات الدولية

مقدمة :

كانت فكرة «توازن القوى» بمنزلة خلق نظام عالمى ناشئ، ومحفز مهم للزعماء والسياسيين للتفكير بشأن النظام الدولى، وهكذا لعب «توازن القوى» دوراً مهماً فى تطوير فكر العلاقات الدولية، وكان إحدى السمات الرئيسية لأوروبا بعد الانقسامات الكبرى فى القرن السادس عشر، ومثل صلح وستفاليا عام ١٦٤٨م ركيزة أساسية لاستخدام توازن القوى كمبدأ إرشادى ومحورى للعلاقات الدولية الأوروبية فى القرون اللاحقة، وأحد الحلول بشأن القضايا الأمنية فى الفترة المبكرة من نظام الدولة الحديث وعصر ما بعد الحرب الباردة، بالإضافة إلى اعتباره مرشداً مهماً لفهم الأنماط المتكررة لسلوك الدول فى الأوضاع التى تتسم بالفوضى الدولية.

شهد القرن الثامن عشر الذى أُطلق عليه العصر الذهبى لتوازن القوى بداية تطوير المفهوم القديم لتوازن القوى وعدم اقتصاره على الموازين العسكرية فقط، وشهدت القرون اللاحقة حتى عصرنا هذا فى ظل التحولات فى استخدام القوة اتساع المفهوم ليشمل كل عناصر القوة الشاملة للدولة الصلبة والناعمة، وأصبح أحد الموجِّهات المهمة للسياسات الخارجية للدول وفى التفسيرات الواقعية للسياسة الدولية مع بداية القرن العشرين.

تختلف المدارس الفكرية فى تفسير تطبيقات مفهوم توازن القوى فى منظومة العلاقات الدولية، وتختلف الرؤى حول نشأة عملية التوازن فى القوى، هل هى نتيجة تفاعلات وعلاقات الوحدات السياسية؟ أم أن هذه العلاقات والتفاعلات هى المنشئة لعملية توازن القوى؟ ومبعث هذا الاختلاف هو محاولة البعض فى فهم توازن القوى على أنه نقطة تعادل بين قوتين متعارضتين، أو كسياسة مقصود بذاتها، لذلك تعددت التعاريف والمفاهيم لتوازن القوى، وأصبح يستخدم فى أكثر من شكل وله دلالات متعددة.

مفاهيم توازن القوى فى العلاقات الدولية :

تَعُدُّ المدرسة الواقعية للسياسة الدولية أن توازن القوى ظاهرة طبيعية فى حياة الدول، وأن السياسة الدولية ليست سوى صراع من أجل القوة، وتصف توازن القوى بأنه توزيع للقوى السياسية فى العلاقات الدولية.

١- توازن القوى فى الفكر الغربى:

يُعرف **سيدنى فاى** [١] (Sidney Fay) توازن القوى بأنه يعنى التوازن الحق بين دول أعضاء العائلة الدولية والقادر على منع أى منها من أن تصبح قوية بما فيه الكفاية لتفرض إرادتها على الآخرين، فتوازن القوى حسب «**فاى**» يُعَدُّ كآلية لمنع ظهور قوة مهيمنة تستطيع تحقيق مصالحها بشكل منفرد وفرض مبادئها على باقى القوى فى المجتمع الدولى. [٢]

فرّق **كوينسرايت** [٣] (QuincWright) بين «توازن القوى الثابت» و«توازن القوى الديناميكى» مُعدًا الأول يمثل النظام، والثانى يمثل السياسة، ووصف «**رايت**» التوازن الثابت (التوازن كنظام) بالحالة التى تفسر استمرار التعايش بين الحكومات المستقلة التى تتصل مع بعضها البعض، بينما وصف التوازن الديناميكى (التوازن كسياسة) بالسياسات المتَّخَذة من قبل الدول للحفاظ على هذه الحالة. [٤]

أشار **مورجنثاو** [٥] (Morganthaw) فى كتابه السياسة بين الأمم إلى أنه يمكن استخدام مفهوم توازن القوى للتعبير عن السياسة التى تهدف لإحداث توزيع معين للسلطة، أو كوصف للحالة الواقعية للتوزيع المتساوى للقوة على الصعيد الدولى، أو كمصطلح يصف أى توزيع للقوى السياسية فى العلاقات الدولية، ويؤكد **مورجنثاو** أن توازن القوى نظام يهدف إلى الحيلولة دون تفوق أى دولة/دول على دولة/دول أخرى فى النظام الدولى ويحفظ الاستقرار دون تحطيم ظاهرة التعدد فى العناصر التى تؤلفه، ومن ثَمَّ يهدف توازن القوى إلى تحقيق الاستقرار مضافاً إليه المحافظة على الوحدات السياسية المؤلِّفة للنظام الدولى. [٦]

٢- مفهوم توازن القوى فى الفكر العربى:

تُعرف «**موسوعة السياسة**» «توازن القوى» بأنه نظام العلاقات الدولية المبنى على أساس فرضية أن حفظ السلام

الدولى يشترط عدم رجحان كفة دولة أو تحالف دولى على كفة الدول أو التحالفات الأخرى المقابلة، لأن ذلك يُغرى بالهيمنة والعدوان، وبالتالى فإن التوازن فى القوى يضمن عدم الإخلال بالوضع الدولى الراهن وتوزيع النفوذ بالتراضى بين الدول المعنية، ومن هنا يفترض هذا النظام أن تساند القوى الدولية أى دولة تتعرض للعدوان من دولة أخرى ضمن هذا النظام.[٧]

يُعرِّف «**إسماعيل صبرى**» «توزان القوى» أنه حالة تنشأ نتيجة التفوق الضخم لدولة واحدة فى نسق دولى أو إقليمى ، الأمر الذى يهدد حرية الأطراف الأخرى مما يجعلها تتجمع فى محور مضاد. [٨]

وينطلق «**خليل إسماعيل الحديثى**» فى تعريفه «لتوازن القوى» من منظور «أنه سياسة تسعى إليها الدول للحفاظ على وجودها وأمنها ومركزها الدولى أو الإقليمى وذلك من خلال عملية صراع لاكتساب القوة. [٩]

تجدر الإشارة إلى أن حالة الاتفاق أو الاختلاف بين مفاهيم توازن القوى على مستوى الفكر الغربى أو على مستوى الفكر العربى أو بين كل منهما ترجع إلى الآتى:

١- أنه مفهوم تمت استعارته من العلوم الطبيعية وتم توظيفه فى معظم باقى العلوم والأدبيات السياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية والأمنية، فتعددت مجالات استخدامه.

٢- ارتباط مصطلح «التوازن» «بالقوة» ، والتى يتعدد مفاهيم وصور استخدامها، وكذا ارتباطه بالسياسة والعلاقات الدولية وما يصاحبها من عدم ثبات وعدم وضوح.

٣- تعدد وتضاد طرق تحقيق توازن القوى، إما من خلال الصراع واستخدامات القوة أو العكس من خلال اتفاقات ومعاهدات سلام، فتداخلت طرق تحقيق التوازن مع الهدف منه وهو تحقيق الاستقرار والسلام .

٤- حركية «نظام توازن القوى» والتى أكسبته أشكالاً وصورًا مختلفة من خلال نشأته وتطوره عبر العصور فأصبح لكل شكل أو صورة مفهومها الخاص.

٥- يصعب تحقيق أى توازن قوى بين أطراف دولية أو إقليمية متصارعة أو متنافسة إلا فى إطار نسبى، وذلك لأنه يصعب تعادل أو تكافؤ كامل للقدرات الشاملة للدول أطراف معادلة توازن القوى دون انحراف نسبى، ومن هنا تأتى أهمية التقدير الدقيق لهذا الانحراف النسبى .

٦- يشير الواقع بدلالته أن حالة «الصراع والتنافس» بين الوحدات السياسية فى النسق الدولى أو الإقليمى هى المُنشئة والمصاحبة لمعظم حالات توازن القوى، لأنه من غير الممكن أن تتوافق مجموعة من الدول على توزيع القوى بينها لتشكيل حالة توازن قوى فى نسق دولى أو إقليمى وهو ما يرجح أن الصراع أو التنافس هو المنشئ لحالة توازن القوى، كما أن حالة التغير المستمر فى موازين القوى الدولية والإقليمية وسباق التسلح تؤكداستمرارية مصاحبة حالة «الصراع أو التنافس» بين الوحدات السياسية المرتبطة معًا بحالة توازن القوى.

وفى نهاية عرض وتحليل مفاهيم توازن القوى نطرح مفهومًا لتوازن القوى على النحو التالى :

هو «حالة تعادل نسبى أو تفوق نسبى فى القدرات الشاملة بين طرفين متنافسين (كل طرف وحدة سياسية أو أكثر)، ينشأ بطريقة تلقائية نتيجة التنافس أو الصراع بينهما لتحقيق التفوق أو الهيمنة فى النسق الدولى أو الإقليمى، ولا يمثل التوازن «سياسة» أو «هدفًا» يسعى إليه كلا الطرفين إلا فى حالة اختلال هذا التوازن للقوى بينهما بانحراف كبير يستدعى إعادة توجيه السياسات (الأحلاف – المعاهدات – استخدام القدرة العسكرية) لإعادة حالة التعادل أو التفوق النسبى بينهما».

المراجع :

١- سيدنى برادشوفاى :مؤرخ أمريكى حصل على الدكتوراه من جامعة هافارد عام ١٩٠٠م ، وعمل بالتدريس فى «Dartmouth College» ثم انتقل إلى «Smith College» ، ومن أشهر مؤلفاته «The Origins of the World War» عام ١٩٢٨م .
٢- شوقى عبدالكريم، التغيرات الإقليمية الجديدة وتأثيرها على التوازنات الدولية فى الشرق الأوسط، دراسة فى التحالف الروسى، مجلة دراسات لجامعة عمار ثلجى الأغواط، الجزائر، العدد ٢٠١٧،٥٧م، ص١٨٥.
٣- كوينسى رايت: عالم سياسة أمريكى، حصل على الدكتوراه عام ١٩١٥من جامعة «Illinois» ثم انتقل للتدريس بجامعة شيكاغو حتى عام ١٩٢٣م، ومن أشهر ما كتب «The Study of International Relations» عام ١٩٥٥م .
٤- مايكل شيهان، توازن القوى، التاريخ والنظرية، ترجمة أحمد مصطفى،القاهرة، مركز المحروسة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢١٥، ص١٤.
٥- هانز جى مورجنثاو : عالم سياسى بارز،ألمانى الأصل ، أمريكى الجنسية ، نشر كتابه «السياسة بين الأمم» عقب الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٤٨م .
٦- أحمد يوسف محمد عبد النبى، السياسة المصرية والتوازن الإستراتيجى فى الشرق الأوسط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٢١م، ص ١٨٧.
٧- عبدالوهاب الكيالى وآخرون، موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الكويت، ١٩٨١م، الجزءالأول، ص ٧٩٧ .
٨- إسماعيل صبرى مقلد، العلاقات السياسية الدولية، منشورات ذات السلاسل، ط٤، الكويت ١٩٨٥م، ص٢٦٥.
٩- خليل إسماعيل الحديثى، الوسط فى التنظيم الدولى، جامعة بغداد، ١٩٩١م ، ص ٣١ .